

مَجَلَّةُ التَّنْذِيرِ

مَجَلَّةٌ دُورِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ مَحْكَمَةٌ تُشْفِي بِحُكْمِهِمْ وَتُنَشِّرُ لِبُحُوثِهَا وَالسَّلَامَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِمَجَالَاتِ تَدْرِيسِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَتَقْصِدُ رَمَزَيْنِ فِي السَّنَةِ

العدد الثامن - السنة الرابعة . رجب ١٤٤١ هـ ، الموافق مارس ٢٠٢٠ م



أص: ١٢٩

﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾



موضوعات العدد:

● المقاصد القرآنية في سورة ق

أباحت: / حماد بن محمد يوسف

● بلاغة أسلوب الحوار القرآني، حوار الأنبياء مع أممهم مؤذنا

أباحت: د/ بدرية بنت سعيد مفضل الوادعي

● الاستقراء الإيجابي في الحوار القرآني، دراسة تأصيلية "علمية"

أباحت: د/ جمال بن راسم بن مصلح الزوي

● بناء سورة الحاقة على تعظيم الله عز وجل ومقتضى العبودية

أباحت: د/ عوف علي زبدي

● تفرير عن رسالة علمية، بعنوان: تدبر القرآن الكريم

أباحت: د/ عبد القليل بن عبد الله الشويخ

● تفرير عن مصنف هدايات القرآن الكريم

● تفرير عن المؤتمر القرآني الدولي الثاني في هدايات القرآن الكريم



مَجَلَّةُ التَّنْزِيلِ

البحث الثاني

بِلاغةُ أسلُوبِ اَحْوَارِ القُرْآنِ حِوَارِ اَلْأَنْبِيَاءِ مَعَ اَبْنائِهِمْ نَمُودَجًا

اَلْبَاحِثَةُ: د / بَدْرِيَّةُ بِنْتُ سَعِيدِ مَعِيضِ الوَادِعِيِّ

أستاذ التفسير المساعد بجامعة نجران

❁ حصلت على الماجستير من كلية / الآداب جامعة / الأميرة نوره بنت عبد الرحمن بأطروحة: تفسير القرآن من خلال موسوعة (نهاية الأرب في فنون الأدب) للنويري جمعًا ودراسة. ❁ حصلت على الدكتوراه من كلية / أصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود بأطروحة: تحقيق مخطوط (تعليق مبارك في تفسير القرآن العظيم) للإمام القاضي أحمد بن أبي بكر البلقيني من المقدمة إلى نهاية سورة النحل.

أهم النتائج العلمي:

- ❁ محبظات العمل من خلال سورة محمد ﷺ دراسة موضوعية.
- ❁ المال والإنسان في القرآن، (دراسة بلاغية).
- ❁ الزيادات التي وردت في القرآن في حق المؤمنين وحق الكافرين (دراسة موضوعية).

❁ البريد الإلكتروني: elafsw@gmail.com

مستخلص البحث

تناول هذا البحث الحوار من حيث تعريفه وسمات الحوار القرآني، ثم أربعة نماذج من حوارات الأنبياء ومع أبنائهم، ودراستها دراسة بلاغية مقرونة بفوائد تربوية، واستخدمت فيه المنهج الوصفي والاستنباطي. ويهدف البحث إلى استخراج الأسرار البلاغية مع بعض الفوائد التربوية في تلك الحوارات.

❁ وكان من أهم نتائجها:

الحوار ليس سمة للمجتمع البشري فقط، بل قد كان حاضرًا في خطاب الله تعالى مع الملائكة، وحتى مع إبليس أخزاه الله، ومع المخلوقات كذلك.

❁ وأوصت الدراسة:

١- بالاهتمام باستخراج الأسرار والدلالات البلاغية في القرآن الكريم؛ لإبراز روعة وعظمة التعبير القرآني.

٢- عدم التكلف في استخراج السر البلاغي، فالقرآن لا يحتاج إلى التكلف؛ لأن القرآن غني بألفاظه الموجزة، ومعانيه المعجزة.

❁ **الكلمات المفتاحية:** الحوار، القرآن، الأنبياء، الأبناء، البلاغة، أسلوب.

.....



The Eloquence of the Qur'anic Style of Dialogue: the Prophets' Dialogue with their Children as a Model

Prepared by

Dr. Badria Saeed Mo'eedh Al-Wadi'ee

Assistant Professor of Tafsir at the University of Najraan

Email: elafsw@gmail.com

Summary:

This research deals with dialogue in terms of its definition and the features of the Qur'anic dialogue.

Then it examines four models of the dialogues of the prophets **(Peace be upon them)** with their children, from a rhetorical perspective, coupled with the educative benefits that could be drawn from them. This piece of research uses the descriptive and deductive approaches.

The research aims to extract the rhetorical secrets as well as some educative benefits from those dialogues.

Main Findings:

1. Dialogue is not only a distinguishing characteristic of human society, but it is also present in the speech of Allah **(Exalted be He)** with the angels, Satan himself **(May Allah curse him)** and all other creatures.

Recommendations of the Study:

1. More emphasis should be placed on the extraction of the secrets and the rhetorical connotations in the Noble Qur'an with the view to highlighting the magnificence and loftiness of the Qur'anic expressions.
2. The rhetoric Qur'anic secrets should not be concluded in a sophisticated manner, as the Noble Qur'an is not in need of sophistication or mannersism; rather, it is rich in its concise expressions and inimitable meanings.

Keywords: Dialogue, Quran, Prophets, Children, Eloquence, Style.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان ما صبح بدا وما ليل سجي صلاةً وسلامًا سرمدياً أبداً،

أما بعد:

فالقصاص القرآني معين دفاق، ومورد أخاذ، تستسقى منه الحكم، وتستنتج منه العبر.

ومن بديع جمال القصاص القرآني ما يحوي من صور الحوار المتبادلة التي تدل على أن الحوار سمة فاعلة من سمات المجتمع البشري، تُفهم به حاجات النفوس، ويكشف عن ما ينتجه العقل من آداب وفكر؛ ولذلك حوى القرآن أنواعاً عديدة من الحوارات، ومنها: حوارات الأنبياء ﷺ مع أبنائهم، حيث تتجلى فيها عظمة الهدف، وروعة التصوير، وبلاغة الأسلوب، حيث كانت بياناً للهداية القرآنية في مجال التربية، وهي وسيلة إصلاح للأسرة والمجتمع.

مما قادني إلى أن أجعلها مجالاً لبحثي ودراستي بذكر بعض النماذج من الحوارات بين الأنبياء وأبنائهم في القرآن، ودراستها دراسة بلاغية مع استخراج التطبيقات والفوائد التي تنفع المرابي في حوارهم مع أبنائهم وطلابهم، دراسة شرفت بشرف متعلقها ومصدرها، وهو القرآن الكريم.

وقد سلكت في دراسة الموضوع المنهج الوصفي وتم توظيفه في تعيين بعض الحوارات ودراستها دراسة بلاغية أسلوبية، ثم المنهج الاستنباطي في استخراج الدلالات البلاغية والتربوية في الآيات الكريمة.



وقد تناول البحث: مقدمة، وتمهيداً، وأربعة مباحث.

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والمنهج المستخدم

في دراستها.

التمهيد: وفيه تعريف الحوار وأهميته، وسمات الحوار القرآني.

المبحث الأول: حوار نوح عليه السلام مع ابنه.

المبحث الثاني: حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليه السلام.

المبحث الثالث: حوار يعقوب مع ابنه يوسف عليه السلام.

المبحث الرابع: حوار يعقوب عليه السلام مع أبنائه بعد فقد يوسف وأخيه.

.....



التمهيد

◆ تعريف الحوار وأهميته :

اهتم الإسلام بالحوار اهتماماً كبيراً؛ إذ إن طبيعة الإنسان تميل بفطرتها إلى الحوار، ولم لا! وهو حاجة إنسانية مهمة يتواصل فيها الإنسان مع غيره لنقل آرائه، وأفكاره، وتجاربه، وقيمه، بالإضافة إلى أنه إحدى طرق التربية المهمة في الحياة؛ لأنه وسيلة للوصول لليقين بعدما أعلن كل طرف وجهة نظره، وكشف ما لديه مما خفي على الآخر.

ويتميز الحوار عامة أنه يتيح الفرصة لسبر أغوار النفوس، وتعزيز إيمانها، وترسيخ عقيدتها، وتصحيح مفاهيمها، وثبيت قيمها، وتعديل سلوكها، ومن ثم يشعر المحاور بالاطمئنان.

ومما لا شك فإن الإسلام يهدف إلى الرقي بالمجتمع المسلم إلى معالي الأمور، وسمو الأخلاق، وعلو الآداب، وينأى بأفراده عن كل خلق سيء أو عمل شائن، ويريد أن يكون المجتمع مجتمع محبة وألفة تربط بين عناصره: الأخوة، والمودة.

ويكتسب الحوار أهميته من كونه وسيلة للتآلف والتعاون، وبديلاً عن سوء الفهم والتفوق والفرقة والصراع، وبذلك يصبح الحوار ضرورة طالما تفاعل الناس وتدافعوا، واختلفت انتماءاتهم ومصالحهم، وأفكارهم ومشاعرهم تجاه الأشياء والأشخاص من حولهم^(١).

ويشير التعريف اللغوي للجندر (حَوْر) إلى دلالات عدة، منها: الرجوع عن

(١) الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، للدكتورة منى إبراهيم اللبودي (٢٠).



الشيء وإلى الشيء، وهي دلالة تقترب من دلالة لفظة (حوار) التي تدل على التحدث والتجاوب القولي، فالمحاورة: المجاوبة، واستحارة: استنطقه^(١).

والمحاورة: حسن الحوار، ومنها أيضًا: كلمته فما ردَّ على محورة، أي: كلام^(٢).

فهي تعطي في طياتها دلالة خلقية تتعلق بكيفية الحوار وأدبه، وهذا صحيح، فالحوار يستلزم طرفين أو أكثر، ولا يتم إلا في جو أدبي يتيح السمع والقول بين المتحاورين، وتتسع دلالة الحوار معجميا، فتكون بمعنى: جادله^(٣).

والجدال يعطي فرصة للقول والمراجعة بين المتحاورين، وإن كان يهدف للإفحام للخصم غالبًا.

والمحاورة: مراجعة المنطق، والكلام في المخاطبة، وهم يتحاورون، أي: يتراجعون الكلام^(٤).

وأيضًا: ما أحرار جوابا، أي: ما رجع^(٥)، وكذلك: تحاوروا تراجعوا الكلام بينهم^(٦)، ومنه حديث النبي ﷺ: «نعوذ بالله من الحور بعد الكور»^(٧).

وأيضًا: من معاني الجذر اللغوي (حور) ما يفيد الحيرة من حار (بدلالة) لم يهتد لسبيله، فهو حيران، وحائر، وهي حيراء^(٨).

(١) لسان العرب، لابن منظور (١/٧٥٠).

(٢) أساس البلاغة، للزمخشري (٩٨).

(٣) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية (١/٢١٢).

(٤) المرجع السابق.

(٥) لسان العرب، لابن منظور (١/٧٥٠). وجاء في دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي،

(٣/٦٤٧): "تحاور الناس: تراجعوا الكلام وتداولوه".

(٦) أساس البلاغة، للزمخشري (٩٨).

(٧) صحيح مسلم كتاب الحج، باب ٥٧ الحديث ٣٣٤٠.

(٨) المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية (١/٢١٢).



فهو يعطي دلالة مناقضة، فليس كل حوار يأتي بالجديد، فقد يزيد المرء ضللاً.

فالحوار: حديث يدور بين اثنين على الأقل، ويتناول شتى الموضوعات...، ويفترض فيه الإبانة عن المواقف والكشف عن خبايا النفس^(١).

أما الحوار القرآني فقد عرفه النحلاوي^(٢) بأنه: كل نداء أو خطاب أو سؤال يوجهه القرآن، أو يحكيه موجهًا إلى منادى أو مخاطب أو مخاطبين حول أمر مهم بقصد توجيههم، أو توجيه اهتمامهم إلى هذا الأمر، أو تحقيق هدف معين، أو القيام بسلوك فكري أو اعتقادي أو اجتماعي أو أخلاقي أو تعبدية^(٣). **ويؤخذ على هذا التعريف:** إدخاله لكل نداء في القرآن في الحوار.

وعلى هذا يكون تعريف الحوار القرآني في هذا البحث: بأنه تجاوب ومراجعة بين طرفين أو أكثر -أيًا كان عددهم- حول موضوع معين يهم كلا الطرفين أو أحدهما بوسيلة من وسائل الإتصال المناسبة لأطراف الحوار وظروفه بهدف الإقناع، أو تقريب وجهات النظر.

فالحوار القرآني أسلوب فريد في قوة مبانيه، وعمق آثاره التربوية والنفسية لم يسبق إليه، وحسبه أنه مظهر من مظاهر تجلي العناية الإلهية بالإنسان؛ ليعتز بإنسانيته، ويستمر في مناجاة ربه، وتفهم آياته وتشريعه.

◆ وللحوار القرآني سمات منها :

١- الإنصاف والموضوعية: يتسم الحوار القرآني بإنصافه المحاور الآخر -وإن كان معارضًا-، ويمكن استنباط هذه السمة من الحوار الذي

(١) القاموس المحيط، للفيروز أبادي (٤)

(٢) عبد الرحمن النحلاوي، ولد في دمشق، استاذ في دار المعلمين بجامعة دمشق، واستاذ مساعد في الكليات العلمية بالرياض وجامعة الإمام، باحث ومشرف ومدقق، له مؤلفات عديدة.

(٣) التربية بالحوار، (١٤).



دار بين النبي ﷺ والمشركين في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٤].

٢- الإستمالة والرفق في الخطاب: يتسم المنهج القرآني بالترفق واللين مع المخاطبين، ومحاولة استمالتهم أيًا كانوا حتى وإن كانوا مشركين؛ ليستميل قلوبهم نحو موضوع الحوار وعرض قضيته واحتمال وقوع أحد الطرفين في الخطأ، ومنه قوله تعالى: في سورة سبأ ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ [سبأ: ٢٤].

٣- التنوع: أسلوب الحوار في القرآن غني بالقوة والفخامة وسمو الألفاظ، ويتلون حسب مقتضى الحال وداعية المقام والغرض الذي من أجله دار الحوار، فمن أمثله: الحوارات المفصلة التي دارت بين موسى ﷺ وشعيب، وإما الحوارات التي تركت بعض جوانبها، مثل: بعض الحوارات الواردة في سورة يوسف ﷺ.

٤- الإضمار: وهو إخفاء لبعض جوانب الحوار، وطبي لشيء من تفاصيله، ففي قصة رحلات إخوة يوسف طويت المسافات المكانية والزمنية دون أن يجد السامع انقطاعاً في أحداثها.

٥- الحكاية: يعتمد أسلوب الحوار في القرآن -في الغالب- على حكاية القول: (قال، وقالوا) أو الأمر به: (قل، وقولوا). فهذا الأسلوب يرسم خطوط الحوار، ويرفع شيئاً من ملابسات الموقف قد تحصل.

٦- مخاطبة العقل والعاطفة معاً: فهو يخاطب العقل؛ ليقنعه، ولا يهمل العاطفة؛ ليكون هناك توازن أدعى للتقبل، ومنه حوار إبراهيم مع أبيه حيث وازن بين النظرة العقلية للأمر وأشبعها بالعاطفة الدفاقة التي تحضر عند الخوف على الوالدين من أي أذى.

المبحث الأول

حوار نوح ﷺ مع ابنه

يصور لنا القرآن الكريم مشهداً من مشاهد الطبيعة التي تظهر فيها الأبوة عاطفةً ملهوفةً حانيةً قلقةً على ابنٍ يُخشى عليه من الهلاكِ بسببِ عقلٍ ضالٍ، وفكرٍ مُظلمٍ مُدْلهِمٍ.

♦ يتضح ذلك من خلال موقف نوح مع ولده في القرآن:

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ أَرَبُؤُفِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُنَهَا وَرُسْنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنَى أَرَكْبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَوِّئْتُ إِلَى جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ [هود: ٤١ - ٤٣].

لما انتهى نوح ﷺ من صنع السفينة وإعدادها إعداداً صالحاً لركوب الفئة المؤمنة معه، وجعلها وسيلة لنجاته ومن صحبه أمرهم بالركوب في السفينة، فقال: ﴿ وَقَالَ أَرَبُؤُفِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرُنَهَا وَرُسْنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

أول ما يرونا في هذه الآية التصوير البديع في قوله: ﴿ أَرَبُؤُفِيهَا ﴾ فالسفينة لا يُرَكَّبُ عليها، وإنما يُسْتَقَرُّ بها، ولذا عُدِّي ﴿ أَرَبُؤُفِيهَا ﴾ بـ (في)، فقد شبه الله ﷻ السفينة بالمطيّة التي تركب، ثم حذف المشبه به، ودُكِرَ شيئاً من لوازمه، (الركوب): على سبيل الاستعارة المكنية، وهذه الاستعارة توحى بشدة التمكن في السفينة وتتمام الاستقرار بها.



ثم يأتي تعريف المسند إليه في قوله: ﴿أَزْكَبُوا﴾ بضمير الخطاب (واو الجماعة)؛ لأن المقام مقام خطاب من نوح ﷺ للفئة المؤمنة. وأثر التعبير القرآني في قوله ﴿وَمُرْسَهَا﴾ بمادة (رسي) على مادة (قَرَّ)؛ لأنَّ (الرُّسُو) هو ثبات الشيء ثباتاً غير جامدٍ، أي: أنه بعد ثباته يمكن أن يتحرك، وهذا يناسب ثبات السفينة، أمَّا (قَرَّ) فهي تقال على الشيء إذا ثبت ثبوتاً جامداً، وأصله من القر، وهو: البرد، وهو يقتضي السكون، والحر يقتضي الحركة^(١)؛ لذا كان التعبير بمادة (رسي) أنسب وأدق.

والتعبير بلفظ الجلالة في قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾؛ لإدخال الأنا والطمأنينة في قلوب المؤمنين فهم في أمس الحاجة إلى ذلك في تلك اللحظة.

ولما كان المقام مقام بيان - أنه لولا مغفرته تعالى ورحمته بهؤلاء القوم ما نجى منهم أحد - جاء في ختام الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد أكد الكلام ب: ﴿إِنَّ﴾ و(لام الابتداء) تحقيقاً لأتباعه بأن الله رحمهم بالإنجاء من العرق^(٢)

ولفظ الربوبية في قوله: ﴿رَبِّي﴾ يشعر بمعنى التريية والحنو والرأفة، وهذا التعبير أنسب للحالة التي كان عليها نوح ﷺ والمؤمنون معه.

وجاء ﴿لَغُفُورٌ﴾ على صيغة (فعول) التي هي من صيغ المبالغة، وذلك للإشعار بأن مغفرة الله واسعة ليس لها مثل، فالذنوب التي لا تحصى ولا تُعد هو الغافر لها والمتجاوز عنها كذلك رحمته واسعة شاملة تعم الخلق، وقد أشعر بهذا المعنى التعبير بصيغة (فعليل) ﴿رَحِيمٌ﴾ التي هي من صيغ المبالغة أيضاً.

(١) مفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (٣٩٧).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٢ / ٧٤).



وقدم لفظ ﴿لَعْفُورٌ﴾ على ﴿رَجِيمٌ﴾ وهذا التقديم أولى؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تطلب قبل الغنيمة.

ولم يقع في القرآن تقديم لفظ ﴿الرَّجِيمُ﴾ على ﴿الْعَفُورُ﴾ إلا في موضع واحد من القرآن، وهو في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ [سبأ: ١، ٢]. فقدّم في هذه الآية لفظ ﴿الرَّجِيمُ﴾ على ﴿الْعَفُورُ﴾ إما بالفضل والكمال، وإما بالطبع حيث إنّ (الرحمة) تشمل أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخص بعضهم، والعموم بالطبع قبل الخصوص (١).

ثم يأتي تصوير المشهد الهائل الذي تبرز فيه العاطفة الجياشة الحانية من الأب للولد، فالأب هنا تنساب منه العاطفة رقةً وقلقاً على ابن عاقٍ، وكان هذا في وقت جريان السفينة ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يُبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

يبدو أنّ ذلك الجريان كان عظيمًا هائلًا في وسط الأمواج الكثيرة المرتفعة، والسامع يتشوق لسماع مثل ذلك الخبر كما أنه يحتاج إلي تقوية الخبر وتمكينه؛ لذا قدّم المسند إليه ﴿وَهِيَ﴾ على المسند ﴿تَجْرِي﴾، ولأنّ المقام مقام غيبة عرّف المسند إليه ﴿وَهِيَ﴾ بضمير الغيبة، وفي التعبير بضمير الغيبة ﴿وَهِيَ﴾ من التعظيم الكثير والتفخيم.

(١) من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة، ل.د./ عبد الفتاح لاشين (٢٢٧).



أما العظْمَةُ: فتأتي من أن هذا الضمير يعبر عن السفينة التي ينجو بها نوح عليه السلام ومن معه.

وأما الضخامة: فتأتي من أن الإضممار فيه إبهام، فالشيء إذا كان مبهما كانت النفس تتطلع إلي فهمه وتتشوق إلى معرفته، وهذه ميزة الإضممار في الآية.

وجاء التعبير عن جريان السفينة بصيغة المضارع **تَجْرِي**، وذلك تصويرًا لحالها في جريها بهم كأنها حاضرة أمام القارئ أو السامع ^(١).

وآثر التعبير القرآني مادة (جري) على (مر) حتى تصور ما كانت عليه السفينة من سرعة بالغه في الحركة، فمادة (جري) تعني (مر بسرعة) ^(٢).

وأما مادة (مر) فتعني: (سار وتحرك) ^(٣) فقط، فلا تصور ما كانت عليه السفينة من سرعة، ولذلك كانت المادة (جري) أنسب في التعبير من كلمة (مر)؛ لنهاؤها بالمعنى المراد.

وينقلنا السياق إلى التصوير البديع حيث تشبيه الموج بالجبال إذ تجري هذه السفينة في موج مرتفع يشبه الجبال في ضخامتها وارتفاعها، وقد دلَّ التشبيه على عِظَمِ الأمر من حال الماء وتطبيقه على الأرض ومن ملابسة الرياح ^(٤).

والقرآن حين يشبه محسوسًا بمحسوس ليحرص أحيانًا أن يرسم الصورة كما تحس بها النفس... فهذه الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة كما تصور لنا ما يحس به ركاب السفينة ^(٥).

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٧٨/١٢).

(٢) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، لمحمد إسماعيل إبراهيم (١٠٠).

(٣) المرجع السابق، (٤٩٢).

(٤) الجمان في تشبيهات القرآن، لابن نايقا البغدادي (١٢٦).

(٥) التعبير الفني في القرآن الكريم، لبكري شيخ أمين (١٩٨).



وتلاحظ دِقَّةَ التعبيرِ القرآنيِّ في اختيارِ كلمةٍ ﴿مَوْجٌ﴾ بدلاً من (ماء)؛ لأنَّ الموجَ أعلى من سطحِ الماءِ في تتابعِ مَعْ هُبُوبِ الرِّيحِ^(١) لذا كان التعبيرِ القرآنيِّ أدقَّ وأنسبَ في المعنى المراد.

وتنكير ﴿مَوْجٌ﴾ يشعر بأنَّ الموجَ الذي يشبه الجبال كان عظيمًا هائلًا فلا يقوى عليه أحد، ولا ينجو منه مخلوق.

وفي وسط هذا الهول يمد نوح ﷺ بصره فيجد من الذين تخلَّفوا عنه ابنه فلذَّةَ كَبِدِهِ، فيتوجَّهُ إليه بالنداءِ في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْرِلٍ يَبْنَئِي أَرْكَبَ مَعْنًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾.

وَعرف المسندِ إليه بالعلمية في قوله ﴿وَنَادَى نُوحٌ﴾، وذلك لإحضاره وتعيينه له بِاسْمٍ يختصُّ به في ذهنِ السامع.

ويستشعر من النداءِ في قوله: ﴿يَبْنَئِي﴾ العطف الشديد والشفقة المشوبة بالخوف والقلق، علَّه يستجيب بهذه الطريقة، فهو يريد من هذا النداءِ إيمان ابنه وهدايته وركوبه معه السفينة.

لأن استعمال النداءِ بألفاظِ البنوة والأبوة تفتح مغاليق النفس، وتشرع أبواب القبول للتوجيهات، ولذلك حتى مع علم نوح بكفر ابنه طيلة مدة الدعوة إلا أنه ما يزال يناديه بـ ﴿يَبْنَئِي﴾ لعل هذا النداءِ في وقت الغوث والفرع يتغلغل في حنايا قلبه فيلين ويستجيب.

وأداة النداءِ (يا) وما تشتمل عليه من مد تتعاون مع باقي التراكيب في رسم الحسرة والألم اللذين ألمَّا بنوح ﷺ، فالمد الذي يوجد بحرف النداءِ يساعد في تصوير صرخات نوح ﷺ النفسية وأناته الطويلة حزنًا على ابنه.

(١) معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، لمحمد إسماعيل إبراهيم (٥٠٩).



ويلاحظ أن نوحًا عليه السلام قال ﴿يَبْنِي﴾ ولم يقل (يا ولدي) وذلك لأنه يخاطبُ ولده الذكر، فكلمةُ (ابن) لا تطلق إلا على الذكر، أمَّا (الولد) فيطلق على الابن والابنة معًا، مما يشهد بدقة التعبير القرآني.

وكنِّي بقوله ﴿أَرْكَبُ مَعَنَا﴾ عن رغبة نوح القوية في إيمان ابنه وعدم انغماسه في الكفر والضلال، فهو حث وتحضيض من نوح عليه السلام لابنه بالإيمان بطريقة غير مباشرة، فالكناية هنا عن صفة الإيمان، لأنه يقول بعد ذلك: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِينَ﴾، وهذه الكناية تصور قلق الأب الحنون وشدة خوفه على ابنه الضال كما توضح حرصه الشديد على إيمانه وهدايته.

فاستخدام التعبيرات غير المباشرة، والألفاظ المستعارة عند التوجيه والطلب للإنقياد كما عبر نوح بطلب ابنه الركوب معهم وليس الدخول في الإسلام لعله يجد منه استجابة في وقت أحاط الغرق بأهل الأرض إلا من ركب معه، لأنه يعلم أن في ثنايا الركوب في السفينة نجاة في الدنيا والآخرة.

ثم يأتي حذف المفعول من قوله: ﴿أَرْكَبُ مَعَنَا﴾ والتقدير: (اركب معنا السفينة)؛ لتعيينه ولضيق المقام لأن بين نجاة من نجا، وهلاك من هلك لحظات خاطفة، ولأن الحرص على المعية والنص عليها أهم من تعيين المفعول في هذا المقام^(١).

والمراد من النهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكٰفِرِينَ﴾ النصيح والإرشاد إلى ما فيه الخير لابنه، وهذا النهي يمتزج بقلق أبٍ ملهوفٍ، والحسرة على ابنٍ لعبت بأفكاره الأهواء.

(١) الحوار في القرآن الكريم، لمحمد إبراهيم عبد العزيز (٤٢).



فتوضيح المربي أسباب التوجيه الذي يعطيه حتى يتحقق معرفة دواعي ذلك الأمر، فقد يسري في النفس بالطاعة والإنقياد، ولذلك أوضح نوح ﷺ السبب من طلبه ابنه الركوب معه، وهو أن عدم ركوبه سيحيط به ويجعله في عداد الكافرين الذين سيغرقهم الموج.

وفي الآية التالية: يأتي رد الابن المغرور ذلك الابن العاق، يقول تعالى:
﴿ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعَصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ ﴾.

ويستشعر من قول الابن هذا تهكمٌ من قول أبيه وفعله ﴿ يَبْتِئُ أَرْكَبَ مَعَنَا... ﴾ الآية.

وفصل قوله: ﴿ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ ﴾ عما قبله لما بينهما من شبه كمال الاتصال حيث أن القول السابق أثار سؤال تقديره: (ماذا قال الولد عقب طلب أبيه له بالركوب معه) فقول: ﴿ قَالَ سَاوِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ ﴾، وبلاغة هذا الضرب تكمن في أن الجملة الأولى تثير في النفس خواطر وهواتف، فتأتي الثانية مجيبة عن هذه الخوارج، وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة في الجملة الأولى، وهكذا يتوالد الكلام وتتناسل الجمل، ثم إن في طي هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ضرب من وجازة الكلام واختصاره ودمجه واكتنازه، ولو ذهبت تبسط ما حقه البسط لرأيت وراء كل جملة من هاتيك الضروب جملة قد تطول أو تقصر، ولكنها أضمرت في تلك الجملة، واكتفي في الإبانة عنها باللمحة والإيماضة السريعة التي انعكست في تحريك السامع واستثارة حسه^(١).

(١) دلالات التراكيب، لـد/ محمد محمد أبو موسى (٣١٢).



والتعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ﴾ لاستحضار صورة الإيواء والاعتصام بالجبل فهو يحاول إقناع أبيه.

وتنكير ﴿جَبَلٍ﴾ يوحي بعظم هذا الجبل وشدة ارتفاعه، فالجبل الذي يبحث عنه الولد هو الجبل الشاهق شديد الارتفاع الذي لا تطوله الماء.

وأما التعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فلإشعار باستمرار الاعتصام بالجبل في وقت الغرق، فالابن يعتقد أنه سيعتصم بالجبل فترة كبيرة حتى ينتهي الطوفان.

ومع هذا العناد تبرز عاطفة الأبوة العاقلة المدركة لفداحة الأمر وهوله، فيرسل الأب نداءه الأخير الواعي لابنه الذي لا يدرك خطر الأمر، فيقول له: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا جبال ولا مخابى ولا عاصم من أمر الله إلا من أراد الله أن يرحمه ويعصمه. وهذا من الإسناد المجازي لعلاقة المفعولية بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي: لا معصوم إلا من رحم الله.

ويلاحظ في هذا القول أيضاً: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ القصر البديع إذ أنه قصر العصمة على من يرحمه الله في هذا اليوم بطريق النفي والاستثناء، وقد أفاد هذا القصر تأكيد مضمون الجملة مع الإيجاز، وهذا القصر يوضح احتياج الناس الشديد إلى رحمة الله ورأفته في هذا اليوم العصيب.

وكُنِيَ بهذا القول: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ عن عصمة المؤمنين الموجودين في السفينة ونجاتهم، وعدم عصمة غيرهم ونجاتهم.

وكان مقتضى الظاهر في الآية أن يكون الكلام هكذا: (لا عاصم من أمر الله إلا الله) لكنه قال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.



وفي العُدولِ إلى الموصولِ... زيادةُ تفخيمٍ وتحقيقٍ لرحمته، وأنَّ رحمتهُ هي المعتصم لا إلى الجبلِ وهو أقوى الوجوه^(١).

والمراد من قوله: ﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾، أي: لا عاصم اليوم من الماءِ. وعبرَ بذلك تفخيماً لِشأن ذلك الماءِ، وتهويلاً لِأمره وتنبهًا لابنه على خطئه في تسميته، وتوهمه أنه كسائرِ المياهِ التي يتخلصُ منها بالهربِ إلي بعضِ المهاربِ المعهودةِ.

فقرن ذكر المصالح والمفاسد بالتوجيه، حيث قد يكون جهل الابن وقلة إدراكه لحجم الخطر وسوء العواقب حائلاً دون الاستجابة للتوجيه، ولذلك عقب نوحٌ ﷺ على جواب ابنه ﴿ سَأْوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ موضحاً أن الأمر أكبر مما تتوقع ويحيط به خيالك وفكرك.

وفصلُ قوله: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ﴾، عن جملةِ ﴿ قَالَ سَأْوَى ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الثانيةَ: ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ﴾ وقعت جواباً لسؤال أثارته الجملةُ الأولى فكانه قيل: أهذا يمكن؟ فكان الجوابُ ﴿ لَا عَاصِمَ ﴾، وفصل بينهما لشبه كمال الاتصال. وحيلولةُ الموجِ في آخرِ المحاورَةِ تشيرُ إلى سرعةِ فيضانِ الماءِ في حينِ المحاورَةِ^(٢).

وقوله: ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرِقِينَ ﴾ إشارةٌ موجزةٌ إيجازاً بديعاً لأنها تشير لغرقه وغرق من معه من الفئة الكافرة، وبلاغةً هذا الإيجازِ تتضح في سرعة قضاء الله بهلاكِ الهالكين.

(١) حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي، للشهاب الخفاجي (١٠٠/٥).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٧٧/١٢).



وإثارة ﴿كأن﴾ في التعبير على (صار) للمبالغة في كونه من المغرقين.
وبنهاية الحوار تنتهي حياة الابن على الرغم من حرص الأب على بقائها، وهذا تنتهي قصة الابن العاق المغرور العنيد، وبقي من بعده الأب المكلم الحزين الذي مافتى يسأل الله فيه ويثني الطلب بالعفو عنه حتى جاءه النهي من الله أن يسأله ما ليس له به علم على طريقة الجاهلين.





المبحث الثاني

حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل ﷺ

يقول تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُا إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ۗ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ فَدَصَّدْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُو الْبَلْتَأُ الْمُمِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَآ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ [الصافات: ٢٠٠-٢١٠].

في هذه الآيات تصور لنا القرآن الكريم حوار إبراهيم ﷺ مع ابنه تصويراً بديعاً، ذلك الحوار الذي يصور لنا الأب الشيخ الهرم الذي طالما انتظر ابنه، وطال هذا الانتظار حتى دعا ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فأجاب ربه هذه الدعوة، ثم بعد ذلك يستأذنه في ذبحه، والابن يرد عليه رداً إيمانياً هادئاً، رد المؤمن الورع المطمئن ﴿ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ﴾، وليس هذا فحسب، وإنما يعده بأن يكون صابراً، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَمْتَنَ عَلَى الْأَبِ الْحَنُونَ المتعلق بابنه، والابن الطائع البار؛ بأن أنزل عليهما الفداء الذي يخلص الأب من معصية الرب، وذبح الولد.

وتبدأ هذه الآيات الكريّمات بدعاء أبي الأنبياء الذي فيه يناجي ربه بأن يرزقه ولداً.

يقول تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾، ويلاحظ أن إبراهيم ﷺ لم يذكر حرف النداء مع ﴿ رَبِّ ﴾ في قوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي... ﴾ الآية، ولكنه أتى به مجرداً، وهذا يعبر عن شعور إبراهيم بقربه من ربه، وقربه تعالى منه ﷺ، وأنه لا توجد عوائق بينهما ولا وسائط.



وَعَبَّرَ عَنْ هَذَا بِلَفْظِ: (الهبّة)؛ ليشعرنا بأن هذا سيكون تفضلاً وتكرماً من قِبَلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وهذا المعنى ليس موجوداً في لفظ: (ارزقني).

وَالْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ هَبْ ﴾ مراد به الدعاء، فإبراهيم عليه السلام توجه إلى ربه بالدعاء متضرعاً أن يرزقه ولدًا، وليس أي ولد، وإنما يرجو أن يكون ولدًا صالحًا بارًا، ولهذا قال: ﴿ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾.

وجاء النص القرآني باسم الفاعل مجموعاً؛ للإشعار بأن الصلاح المراد هو: الصلاح الثابت الدائم، وليس هذا فحسب، بل إنّه عليه السلام أراد أن يكون ابنه مشتهراً بالصلاح معروفًا به، كل هذا فهم من التعبير باسم الفاعل المجموع مما يشهد بدقة التعبير القرآني.

وعلى الفور بشره تعالى بَعْلَامٍ سَيَكُونُ حَلِيمًا فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

يقول تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَلْمٍ حَلِيمٍ ﴾، فالله عز وجل يخبره في هذه الآية بأنه سيرزقه ولدًا سيكون حليمًا في كِبَرِهِ فكأنه بَشَّرَ ببقاء ذلك الولد؛ لأن الصغير لا يوصف بذلك، فكانت البشرى من الملائكة ^(١).

وأطلق لفظ ﴿ حَلِيمٍ ﴾ وهو لا يكون كذلك بمجرد مولده، وإنما تحدث له هذه الصفة المثلى بعد ذلك بسنين ^(٢). على سبيل المجاز المرسل باعتبار ما سيكون، وفي هذا المجاز مزيد من البشارة، وتعجيل بالمسرة.

وحينما جاء الولد الحبيب الذي سيكون حليمًا، وبدأ يسعى معه في بعض الأمور، أوحى الله إليه في منامه بِسِعَّةٍ صَدْرٍ وَصَبْرٍ.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٧/٥٥٤٣).

(٢) البيان بين عبد القاهر والسكاكي، لـد/ علي البدري (١٤٧). وانظر: علم البيان، لـد/ عبد الفتاح لاشين (١٤٦).



يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَتَّبِعُكَ أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ۚ ﴾ . وجاء أمر الله عز وجل لإبراهيم عليه السلام بذبح ابنه في صورة رؤيا إكراماً لإبراهيم عليه السلام حتى لا ينزعج بأمر اليقظة ﴿ يَبْنَئِي إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ وهذا جواب لسؤال نشأ من قوله: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ ﴾ ، فكأنه قيل: ماذا حدث بعد بلوغ السعي؟ فقيل: ﴿ قَالَ يَبْنَئِي ﴾ ، وفصل بين الجملتين لما بينهما من شبه كمال الاتصال.

وفي قوله: ﴿ يَبْنَئِي ﴾ خرج النداء إلى الشفقة والترحم.

وعبر بالفعل المضارع ﴿ آرَى ﴾ بدلاً من الفعل الماضي (رأيت)؛ لاستحضار الصورة الماضية، لإبراهيم عليه السلام أراد أن يستحضر الحالة الماضية لولده؛ ليجعله وكأنه يشاهدها ويرى الرؤية معه. وفي هذا من استجلاب الطاعة والتسليم من الولد ما لا يخفى.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ الاستشارة والترغيب في الطاعة؛ لأن هذه الطاعة طاعة الله تعالى قبل أن تكون طاعة للأب.

ويأتي الجواب غير المتوقع من غلام في هذه السن، لكن بالتأمل نجده متوقعاً من غلام بشر الله بحلمه في المستقبل، غلام ابن نبي وسيكون نبياً، ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين، والجواب هو: ﴿ يَتَّبِعُكَ أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ ﴾ . ويلاحظ أن الغلام قد نادى أباه مع أنه قريب منه بحرف النداء (يا)، وذلك للإشعار ببعد المنزلة والمكانة توفيراً له وتعظيماً، فلم تتأثر مكانته عليه السلام عند ولده بأمر الذبح الذي أخبره به.

وقد طبع قوله: ﴿ أَعْمَلُ مَا تَأْمُرُ ﴾ بطابع الإيجاز بحذف فاعل ﴿ تَأْمُرُ ﴾ والجار والمجرور به، وهذا يوضح مدى سرعة امتثال الغلام إسماعيل لأمر ربه الكريم وأبيه الحنون المحزون.



والأمر في قوله: ﴿أَفْعَلْ﴾ مراد منه التسليم والتفويض، فالغلام قد استسلم لأمر ربه ورغبة أبيه في تنفيذ أمر الله ﷻ، فالقدوة في التربية أسرع سبيلاً وأقصر طريقاً لامثال الأبناء للتوجيه، فامثال إبراهيم ﷺ لأمر الله وسرعة تنفيذه جعل إسماعيل ﷺ يمثل أمره ويحث والده على تنفيذ الأمر.

وعدل عن أن يقول: (اذبحني) إلى ﴿يَأْتِي أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ﴾ للجمع بين الفعل وتعليقه، أي: أذنت لك أن تذبحني؛ لأن الله أمرك بذلك، ففيه تصديق لأبيه، وتصديق لأمر الله فيه (١).

وأوثر التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿مَاذَا تَرَى﴾؛ للدلالة على أن الأمر متعلق به مستمر إلى حين الامثال به (٢).

ثم يخبر الولد أباه بأنه ليس جازعاً من الأمر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، أي: أنه سيكون بعد فعلته من المعروفين بالصبر مبالغاً في صبره، ولذا أوثر أن يقال: ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل مجموعاً بدلاً من (صابر) اسم الفاعل مفرداً.

وحينئذ استسلم إبراهيم ﷺ لأمر رب الأنام واستعد لذبح ابنه، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾.

والقرآن عبر عن هذا الاستسلام بطريق الإيجاز، فالكلام محذوف منه المتعلق وجواب ﴿لَمَّا﴾؛ لأن الكلام على تقدير فلما أسلما لأمر الله، وتلَّهُ للجبين كان ما كان مما ينطق به الحال ولا يحيط به المقال من استبشارهما، وشكرهما لله على ما أنعم عليهما (٣).

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٥٢/٢٣).

(٢) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٤١٦/٤).

(٣) ينظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، للشهاب الخفاجي بتصرف (٢٨١/٧)، وينظر: الفوائد المشوق إلي علوم القرآن وعلم البيان، لابن النقيب (١٠٢).



وفي لحظة تنفيذ الأمر ولم يبق إلا أن تزهق الروح، ويسيل الدم، يفاجئه ربه بندائه العظيم ﴿ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّبِّيَّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ليكافأ على امتثاله لأمر ربه وتصديقه رؤيته التصديق المخلص الذي جعله يئذل في سبيل الله أي شيء حتى ولو كان هذا الشيء هو فلذة كبده أو نفسه.

وفي قوله: ﴿ وَنَدَيْنَاهُ ﴾ اسناد هذا النداء إلى نفسه تعالى، وهذا يوحي بمدى رضا الله وإعجابه بطاعة إبراهيم عليه السلام له تعالى، وطاعة ولده له. ويلاحظ نداء الله تعالى لإبراهيم بأداة النداء (يا) دلالة على عِظَمِ الأمر وتفخيماً لشأنه، وليسرع المنادى بالامتثال والإجابة.

وأكد تعالى تصديق إبراهيم عليه السلام، وتنفيذه الأمر بقوله: ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ﴾ حيث اقترن الفعل الماضي بـ ﴿ قَدْ ﴾ وهذا يشعر بالمبالغة في تحقيق التصديق؛ إذ إن التعبير بالفعل الماضي يفيد غالباً تحقق الوقوع وحتميته.

وأكد النص القرآني المعنى بـ (إن)، واسمية الجملة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ حتى لا يتبادر إلى الذهن أدنى شك في أن الله عز وجل يجازي المحسنين. والتعبير باسم الإشارة ﴿ كَذَلِكَ ﴾ للإشعار بفخامة هذا الجزاء، وتصويره بأنه جزاءٌ كبيرٌ عظيمٌ لا يقدر قدره ولا يدرك كنهه ولا مثل له ولا حد؛ إذ إن هذا الجزاء هو جزاء الصبر على أمر من الصعوبة بمكان، فلا يخفى على أحد أن ذبح ولدٍ وحيدٍ مجللٍ وعصيب.

ثم يقرر الله سبحانه وتعالى أن ما حدث لإبراهيم عليه السلام وابنه ما هو إلا بلاء عظيم فمن الصعب على النفس جرح الولد وإيجاعه، وليس ذبحه، يقول تعالى: ﴿ إِنَّكَ هَذَا لَهُوَ الْبَلْتَأُ الْمُبِينُ ﴾.



وجاء النص القرآني بـ ﴿ إِنَّ ﴾ واسمية الجملة؛ للإشعار بأن هذا الأمر لا شك فيه ولا مرأى، فما من شك أن هذا الأمر بلاء كبير لا يقوى عليه أحد. وأكد هذا المعنى بوصف البلاء بـ ﴿ أَلْمِينُ ﴾، فالبلاء وضحٌ والألم كبير ويتضح القصر في الآية حيث قصر ما حدث لإبراهيم عليه السلام على كونه بلاء مبين قصرًا حقيقيًا، والطريق الذي استخدم في هذا القصر قليل الاستعمال، وهو: ضمير الفصل.

وقد ساعد هذا الطريق على الإشعار بعظم الأمر وفخامة القصة. والتعبير بالفعل الماضي يشعر بتحقيق الفداء، ووقوعه بشكل مؤكد، وأن هذا الأمر كتب منذ الأزل.

وتنكير ﴿ بِذِيحٍ ﴾ يشعر بأن هذا الفداء كان بكبشٍ كبيرٍ بالغ العظم في الحجم، وأكد هذا المعنى بكلمة ﴿ عَظِيمٍ ﴾، ثم يشير الله تعالى إلى منزلة إبراهيم عليه السلام، وخلود ذكره، وبقائه إلى يوم الدين في كتابه الباقي؛ إذ تختم الآيات بقوله تعالى: ﴿ وَرَكَعًا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿

فقد نكر المسند إليه ﴿ سَلَّمَ ﴾ للإشعار بعظمة هذا السلام وفخامته عظمة وفخامة لا يدرك كنهها إلا الله.

وكرر ذلك الجزاء مبالغةً في الشناء، ثم علل بأنه كان من الراسخين في الإيمان مع الإيقان والاطمئنان^(١).

هذه قصة إبراهيم عليه السلام، وهو أبٌ، وقد أبرزها القرآن الكريم في شكل قصة في سورة الصافات الكريمة حتى يستوعبها السامع.

(١) صفوة التفاسير، لمحمد علي الصابوني (٣/ ٣٧)



والقصة وهي إحدى الجوانب الخصبية في الأدب العربي كانت بعض الخصائص البيانية في أسلوب القرآن الكريم إلا أنه نهج فيها نهجاً فريداً، فهو يكررها بعباراتٍ متنوعةٍ، وألوانٍ مختلفةٍ؛ كقصة موسى، وإبراهيم، وبعض الأنبياء عليهم السلام، وقد يجيء بها متكاملةً في موضعٍ واحدٍ كقصة يوسف عليه السلام، وأهل الكهف^(١).



(١) من البعد النفسي للتذوق البلاغي لأسلوب القرآن الكريم (٢٠).

المبحث الثالث

حوار يعقوب مع ابنه يوسف عليه السلام

وخوفه عليه من حسد إخوته

يقول تعالى في سورة يوسف: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَكَ نَقْصُصٌ رَأَيْتَ يَا كَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ [يوسف: ٤-٦].

هذه الآيات الثلاث تمثل قصة يوسف رؤياه على أبيه وهو صغير، وطلب أبيه منه أن يمتنع من قص تلك الرؤيا على إخوته، خوفاً من الحسد والكيد له، وتعبير تلك الرؤيا له، وما فيها من البشارة وحسن العاقبة، والتنبيه على عظم شأنه عند المولى عليه السلام وعند الناس^(١).

يقول تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾.

بدأ هذا الموقف بالكناية عن الوقت الذي قصت فيه الرؤيا، وهو قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ فكلمة ﴿ إِذْ ﴾ مع الفعل الماضي ﴿ قَالَ ﴾ إشارة إلى الوقت الذي قص فيه الرؤيا، وهو الماضي حيث تستعمل ﴿ إِذْ ﴾ للماضي غالباً، وليست شرطية^(٢).

(١) تفسير المراغي، لأحمد مصطفى المراغي (١١٤/١٢)

(٢) لمسات بيانية، للدكتور فاضل السامرائي (١٦٥)، تفسير آية: (٨٦: الأعراف)



ويلاحظ تعريف المسند إليه ﴿يُوسُفُ﴾ بالعلمية، وذلك لأن القرآن يقصد بهذا إحضاره بعينه في ذهن السامع أو القارئ ابتداءً باسم مختص به، حتى يحدده ولا يبعد ذهن عنه.

وأثرت (يا) في النداء في قوله: ﴿يَتَابَتِ﴾ مع أن أباه كان حاضرًا قريبًا منه، وذلك للإشعار بأهمية الخبر الملقى، فينزل المخاطب الحاضر منزلة الغائب المطلوب حضوره، وهو كناية عن الاهتمام ^(١).

ويدل على إنصات يعقوب واهتمامه بكلام ابنه أنه يحكي له الأمر حكاية المستريح الهادئ، ويقص عليه كامل الرؤيا دون ضجر من الوالد أو استعجال. **وأشار الإمام الألويسي عند قوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ﴾** إلى أن المراد من النداء في قوله تعالى: ﴿يَتَابَتِ﴾ التوقير والتعظيم، لذلك قال: ﴿يَتَابَتِ﴾ ولم يقل: (يا أبي)، وهذا مفهوم من إبدال الياء تاء؛ لأنها تدل على المبالغة والتعظيم له ^(٢).

والرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام كانت محققةً مؤكدةً؛ إذ جاء النص القرآني مؤكداً بأكثر من مؤكد في قوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾، فقد أكد النص بالجملة الاسمية، و(إنَّ) للإشعار بأن هذه الرؤيا وقعت وقوعاً حقيقياً لا شك فيه ولا مرأ.

وتكرار فعل ﴿رَأَيْتُ﴾ تفخيماً لطول الكلام ^(٣)، وإشارة إلى ضخامة الأمر وعظمته، وهذا الإطناب كان من العوامل التي ساعدت في تأكيد أمر الرؤيا فيوسف عليه السلام بعقل الطفل الصغير رأى ضرورة لتكرار فعل الرؤيا،

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠ / ٢٠٧).

(٢) روح المعاني، للألويسي (١٢ / ١٧٨).

(٣) التبيان في إعراب القرآن، للعكبري (٢ / ٧٢٢).



وكأنه توقع **ﷺ** من أبيه استغرابًا، أو إنكارًا لما رآه منامًا، ولا بدع في هذا التوقع من يوسف إن صحَّ، إذ كان يومئذٍ في ميعة الصِّبَا.

وإيثار التعبير بالفعل الماضي **﴿رَأَيْتُ﴾** يؤازر التكرار في الإشعار بتحقيق رؤياه لما في الفعل الماضي من تحقق الوقوع.

وقدم قوله: ﴿أَدْعَشَرَ كَوْكَبًا﴾ وأخَّرَ كَلَامًا **﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾**، ولم يندرجا في عموم الكواكب؛ لإظهار مزيتهما وشرفهما^(١).

كما يلاحظ تقديم الشمس على القمر في قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، وذلك إمَّا لكونها: أعظم جرمًا، وأسطع نورًا، وأكثر نفعًا من القمر. وإمَّا لكونها أعلى مكانًا منه، وكون فلکها أبسط من فلکهِ^(٢).

ويلاحظ أن: وضع (الكواكب) في خانة، **﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾** في خانة أخرى، كان على قدر رائع من البلاغة للدلالة على أن والدته سوف تتوقف عن الحمل، وقد حصل، وأن زوجة أبيه وأم إخوته سوف تكون من الهالكين قبل زوجها وقبل أبنائها، ولو لم يكن قد حصل لما رأينا الحديث عنها في الرحلة قد كان صفرًا^(٣).

ويتضح التصوير في قوله: ﴿سَجِدِينَ﴾ حيث شبهت الكواكب والشمس والقمر بأناس يعقلون، ثم حذف المشبه به، وذكر شيء من لوازمه، وهو: السجود على سبيل الاستعارة الممكنية. وهذه الاستعارة تصور الطاعة العمياء والانقياد التام من الكواكب والشمس والقمر ليوسف **ﷺ** وذليها له، مما يوحى بفضل الله العظيم عليه.

(١) فتح القدير، للشوكاني (٣/٢٥)، وينظر: روح المعاني، للألوسي (١٢/١٧٩).

(٢) المرجع السابق (١٢/١٧٨).

(٣) في التذوق الجمالي لسورة يوسف دراسة نقدية ابداعية، لمحمد علي أبو حمدة (٥٣).



ووصف الكواكب والشمس والقمر بجمع العاقل ﴿سَجِدِينَ﴾؛ لأنه جعلهم كالإنس في السجود والطواعية فجعلهم كالإنس في الجمع والتذكير^(١). وقد وصف فعل غير العاقل بوصف العاقل، وهو السجود؛ للدلالة على أنها إلهام لا مجرد أضغاث أحلام^(٢).

✧ والكواكب والشمس أجرام سماوية فلا يأتي منها ما يأتي من العقلاء، وقد أجزاها القرآن في هذه الآية مجري العقلاء في موضعين:

✓ أولهما: أعاد في قوله: ﴿رَأَيْتُمْ﴾ حيث أعاد عليها الضمير الذي يعاد به على العقلاء، وكان حق التعبير أن يقال: (رأيتها)، وفي هذا فائدة تكرار الجمل والعبارات التي يحتاجها المحاور في حوارها، وتظهر أهميته في التنبيه للاستيقاظ إذا طال الكلام وخشيت نسيان الأول، أعيد ثانية تطرية له وتجديداً لعهد^(٣).

✓ ثانيهما: في قوله ﴿سَجِدِينَ﴾ حيث أجري عليه الوصف الذي من حقه أن يجري على العقلاء، وكان حق التعبير أن يقال: (ساجدة)، لا ﴿سَجِدِينَ﴾. **لله ولتوجيه ذلك طريقان:**

أولهما - ذكره المفسرون - وهو: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء - وهو السجود، وإن كان سجود كل شي بحسبه ليس سجود هذه المخلوقات وضع جباهها على الأرض^(٤) - أجري عليها حكمهم، كأنها عاقلة، وهذا كثير

(١) ينظر: معاني القرآن، للأخفش (٢/ ٥٨٧).

(٢) تفسير المنير، للزحيلي (١١/ ٢٠٦).

(٣) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٣/ ١٠٤).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢١/ ٢٨٤).



شائع في كلامهم أن يلبس الشيء من بعض الوجوه، فيعطي حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملاسة والمقاربة، وهذا توجيه حسن مقبول.

ثانيهما: أن تكون رموزًا وكنيات عن عاقلين حيث صرح المفسرون بأن المراد من: (الكواكب) إخوته، (والشمس والقمر): أبواه - لما كانت كذلك - عومت معاملتهم فأجري عليها ما جري عليهما.

والفرق بين التوجيهين: أن الأول عام يمكن أن ينتفع به في غير هذا الموضوع، والثاني خاص به دون سواه^(١).

يظهر من هذا أن يوسف عليه السلام كان غلامًا ليس كالغلمان، ولا صبيًا كالصبيان؛ لأن أكثر ما يُتخيل في رؤيا الصبي للكواكب أن يراها حوالية أو بجواره. أمّا أن يراها ساجدةً فهذا هو العجب مما يشعر بأن هذا الصبي له في المستقبل شأن عظيم. ذلك الأمر جعل أباه يحذره من أن يقص تلك الرؤيا على إخوته حتى لا يكيدوا له.

وفي الآية التالية: يحذر يعقوب عليه السلام ولده يوسف من قص رؤياه على إخوته خوفًا من كيدهم له؛ إذ إن الشيطان كيده واضح مؤثر.

يقول تعالى: ﴿ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقْضُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف: ٥].

ويلاحظ أن يعقوب عليه السلام قد نادى ابنه يوسف بلفظ البنوة مصحوبًا بحرف النداء (يا) في قوله: ﴿ يَبْنَئُ ﴾ مع وجوده معه في المكان ليحفز الذهن لاستقبال النصيح، والتنبيه على أن ما سيأتي مهم، وللإشارة إلى بعد منزلة يوسف عليه السلام تنزيلاً لبعده المنزلة منزلة بعد المكان.

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، لـد/ عبد العظيم المطعني (١/ ٤٧٩).



وقد نادى يعقوب عليه السلام ولده بصيغة التصغير فقال ﴿يَبْنَى﴾، وذلك لأن المقام مقام شفقة وعطف وحنو.

وأثر في التعبير صيغة النهي ﴿لَا نَقْصُصْ﴾، وذلك للإشعار بالقلق الزائد من الأب على الابن، فزيادة المبنى أسهمت في زيادة في المعنى (التحذير) مما يوحي بحرص ذلك الأب على نجاة ولده.

وإضافة الرؤيا إلى ضمير يوسف عليه السلام في قوله: ﴿رُءْيَاكَ﴾، للإشعار بأن هذه الرؤيا عظيمة في مغزاها ومؤداها، وكأنها بإضافتها هذه اكتسبت الشرف والعظمة من المضاف إليه.

وتنكير ﴿كَيْدًا﴾ للتعظيم والتهويل، فيعقوب عليه السلام يعلم أن ذلك الكيد سيكون عظيمًا هائلًا لذا نكر لفظ ﴿كَيْدًا﴾، فقال: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ﴾، ولم يقل: فيكيدوا لك الكيد، وفي هذا مزيد من النصيح والتحذير ليوسف عليه السلام.

وآثر التعبير القرآني لفظ (الكيد) على لفظ (المكر) مع أنهما متقاربان في المعنى، فالمكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر إلا أن الكيد أقوى من المكر، والكيد اسم لإيقاع المكروه بالغير قهراً سواء علم أو لا.

وقد أوقع أبناء يعقوب عليه السلام بأخيهم المكروه دون علمه في ما بعد؛ لذا كان لفظ (الكيد) أنسب في التعبير عن المعنى المراد.

ثم يعلل القرآن على لسان يعقوب التحذير بجملة ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، وهذه الجملة واقعة استثنافاً بيانياً؛ إذ إن الجملة السابقة عليها قد أثارَت سؤالا، تقديره: (لماذا يقع منهم هذا الكيد؟)، فقيل: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ...﴾، ففصلت هذه الجملة عمّا قبلها لما بينهما من شبه كمال الاتصال.



ولما كان يوسف متعجباً مما أخبره به أبوه كان كمن ينكر الأمر؛ لذا تزامت المؤكدات على هذه الجملة ﴿إِنَّ﴾، وإسمية الجملة تنزيلاً ليوسف منزلة المنكر في أمر عداوة الشيطان للإنسان.

وتعريف المسند إليه ﴿الشَّيْطَانَ﴾ يوحى بأن يوسف يعلم تلك العداوة، وأنها هي العداوة المعهودة من الشيطان لابن آدم؛ إذ أن (ال) في قوله: ﴿الشَّيْطَانَ﴾ للعهد، وهذا يشعر بأن يوسف ليس صبياً كالصبيان العادية، فلا يوجد صبي يخاطب من أبيه كما خُوطِبَ يوسف ﷺ.

وقرن التعليل بالتوجيه مناسب لسرعة الإمتثال من الأبناء عند توجيههم، فعلى يعقوب ﷺ سبب توقعه وجود مكيدة ليوسف بسبب وسوسة الشيطان التي لا تفارق ابن آدم إلا بمنة الله عليه.

وتقديم الجار والمجرور في قوله ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾ على ﴿عَدُوٌّ﴾ يوحى بعبادة الشيطان القديمة، وملاصقته لبني آدم، فلا يفتر أبداً عن إغوائهم وإضلالهم ولا يمل، وفي ذلك منتهى التحذير منه.

وتنكير المسند ﴿عَدُوٌّ﴾ يوحى بأن هذه العداوة من ذلك الشيطان كثيرة هائلة تستطيع أن تحرض أخاً على الكيد لأخيه، والإضرار به.

وهذا يدل على أن الأبناء معرضين لوقوع الحسد والكيد فيما بينهم مما علت مرتبتهم في الفضل، وحسن التربية، ولذلك لا بد للوالدين من التنبه لهذا، وإخماد كل شرارات العداوة التي قد تكون.

ثم ينتقل يعقوب ﷺ من تحذير ابنه إلى تبشيره بتفضيله - كتفضيل أبويه من قبل، وإتمام النعمة عليه - وأن هذا سيكون على وفق علم الله وحكمته.



يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف: ٦].

صدر يعقوب ﷺ قوله بكلمة: ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى العناية الربانية المدلول عليها من الرؤيا، وكذلك جاءت لتعقد التشبيه بين الاختيارين، فالمشبه هو اختيار ربه له، واصطفاءؤه على البشر، والمشبه به هو الاجتباء البعيد الذي شوهد آثاره من خلال سجود تلك الكواكب له، ووجه الشبه هو الاصطفاء والاختيار العجيب.

وذكرت ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ هنا لعقد التشبيه لما في هذا الأمر من عجب وغرابة، وهذا شأن استعمالها في التشبيه، والتشبيه يوحى بعلو منزلة يوسف ﷺ عند ربه وارتفاع شأنه.

والمراد من التشبيه بيان المضاهاة.... أي: كما سخرت لك تلك الأجرام العظام يسخر لك وجوه الناس ونواصيهم مدعين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة^(١).

وفي قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ ﴾ تقديم للمفعول (كاف الخطاب) على الفاعل ﴿ رَبُّكَ ﴾؛ لأن الغرض هنا - والله أعلم - بيان من وقع عليه فعل الاجتباء. فالاجتباء واقع على سيدنا يوسف ﷺ، وبيان هذا كان أهم عند يعقوب ﷺ ولذا قُدِّمَ.

وآثر التعبير القرآني لفظ ﴿ يَجْنِبُكَ ﴾ بدلاً من (يختارك) أو (يفضلك)، لأن ﴿ يَجْنِبُكَ ﴾ مشتق من جبيت الشيء إذا خلصته لنفسك^(٢)، واجتباء الله

(١) إرشاد العقل السليم، لأبي السعود (٣/ ٨٠).

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة: "ج-ب-ي".



العبد تخصيصه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء، وبعض ممن يقاربهم من الصديقين والشهداء^(١)، فمادة (جبي) تدور حول معاني الصفوة من الشيء، والاستخلاص، والاختصاص الحاصلة للمصطفى بدون أي سعي منه، وهذه المعاني غالباً ما تكون من الله لعبده، وهذه الدلالات والايحاءات لا يتحملها لفظ (يختار) أو (يفضل) لذا كان لفظ ﴿يَجْنِيكَ﴾ أنسب للمقام.

وتعريف المسند إليه بالإضافة في قوله: ﴿رُبُّكَ﴾؛ وذلك للإشعار بتشريف وتعظيم يوسف عليه السلام فقد أضفت بالإضافة على يوسف عليه السلام عظمة وفخامة.
والغرض من الخبر في قوله: ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إظهار الغبطة والسرور، وإدخال البشري على قلب يوسف عليه السلام، وإعلامه بالخير المتوقع له. ورتب التعليم على الاجتباء؛ لأنه يكون الاختيار ثم التعليم، ذلك التعليم الذي يجعله عظيم الشأن، وليس هذا فحسب، بل إن الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** يَتِمُّ نِعْمَتَهُ وَمَتَّعَهُ عَلَيْهِ.

وآثر التعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾؛ وذلك لاستحضار مشهد التعلم واستشعار هذه المنة، وكأنها مشاهدة في لحظة الإخبار، وفي هذا من البشري ما لا يخفى.

ويتضح التشبيه في قوله: ﴿وَيَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَنْتُمْ هَاهُنَا عَلَى آبَائِكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيث شبه إتمام نعمة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** ومنته على يوسف عليه السلام بإتمام نعمة الله على آباءه من قبل، والأداة التي عقدت الصلة بين المشبه والمشبه به (الكاف)، ووجه الشبه إتمام النعمة وكمالها وتحقيقها للطرفين.

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (٨٧)، وانظر: المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية (١٠٦/١).



وفي هذا التشبيه تذكير بفضل الله على يوسف وآبائه عليهم السلام من قبله، وإدخال الأُنس والطمأنينة في قلب يوسف عليه السلام بأن مصيره سيكون نفس مصير آبائه من الفضل والنعمة.

وقوله: ﴿أَبُوكَ﴾ كناية عن الأجداد، وهذه الكناية تصور الصلاح والبركة الذين يمتدان إلى أجداد يوسف عليه السلام.

وفي التعبير عنهما بالأب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه إشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء عليهم السلام، وتذكير معنى الولد سر أبيه لِيُطْمَئِنَّ قلبه بما أُخبر به ^(١)؛ ولأن الجد أب في استعمال العرب.

وفي قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ إيجاز بحذف المضاف إليه، والتقدير: من قبل هذا الوقت الذي أنت فيه، أو من قبلك. وهذا الإيجاز يكشف عما في نفس يعقوب من رغبة قوية في تبليغ يوسف عليه السلام بالبشرى بأقصى سرعة ممكنة حتى ولو كان عن طريق حذف كلمة أو حتى حرف.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وقع تذييلاً يقرر مضمون الجملة السابقة ويؤكد ويحققه؛ لأن كل ما سبق يحدث على وفق مراد الله وحكمته، وهو من باب الإطناب.

وجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استئناف بياني، فقد أثارَت الجملة السابقة عليها سؤال تقديره: كيف يتم الله نعمته على يوسف عليه السلام، فقيل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ فالفصل لشبه كمال الاتصال.

(١) روح المعاني، للألوسي (١٢/١٨٨).

المبحث الرابع

حوار يعقوب عليه السلام مع آبائه وعتابه لهم

حينما ضيعوا أخاهم بنيامين

يقول تعالى في سورة يوسف: ﴿ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ (٨١) وَسئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى يُونُسَ وَأَبِضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَقْتَوُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حُرًّا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنَئِي أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾] [يوسف: ٨١-٨٧].

هذه الآيات الكريمة توضح الحوار الذي حدث بين يعقوب عليه السلام وأبنائه حول السرقة التي اتهم بها أخوهم، فأخوهم الذي أرسله معهم أبوهم، ووعدوه بحفظه وقد حُجز منهم.

فكان هذا الأمر صعباً عليهم، واستيأسوا، فأشار كبيرهم بأن يرجعوا إلى أبيهم، ويخبروه بأن ابنه سرق، وأخذ بما سرق، وما قلنا إلا ما علمناه، وما توقعنا أن يحدث، لأن هذا غيبٌ، وما كُنَّا حافِظين له.

يقول تعالى: ﴿ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾.

ويتضح الإيجاز في الآية، وقد تحقق الإيجاز بالحذف، والتقدير: ارجعوا

إلى أبيكم وأخبروه بالقصة^(١).

والمراد من الأمر في قوله: ﴿أَرْجِعُوا - فَقُولُوا﴾ الالتماس، فأخوهم الأكبر يلتمس منهم أن يلقوا إلى أبيهم ذلك الخبر؛ لأنه لا يستطيع مواجهته.

ويلاحظ النداء بـ(يا)، وإضافة الأب إلى ضمير المتكلمين (نا) في قوله: ﴿يَتَأَبَانًا﴾؛ وذلك لتذكير أبيهم بما يوجد بينهم وبينه من وشيجة دمٍّ وأصرة نسب، لأنهم يعلمون أن ذلك الخبر قد يُنسيه ما بينه وبينهم، والخبر هو: عودتهم من غير أخاهم بنيامين وسرقته. وهذا ليس بالأمر الهين على أبي قد حُرِمَ من ابن له من قبل.

ويأتي تعريف المسند إليه ﴿أَبْنَكَ﴾ بالإضافة ليؤكد المعنى السابق: التذكير بوشيجة الدم وأصرة النسب تعظيمًا لأبيهم وإجلالًا له، فهم يستعظمون سرقة أخيهم ويستنكرونها، فهم يريدون أن يقولوا أن أخيهم هذا لم يكن ابن أي أحد، وإنما هو ابن نبي جليل، وقد رباه على الأخلاق والصلاح. وقيل: في تعليل قولهم: ﴿إِنَّكَ أَبْنَكَ﴾، ولم يقولوا (أخانا)؛ لأنه ليس شقيقًا لهم، أو لكثرة معزة أبيهم له.

وقيل: أن الحسد لم يبق في قلوبهم شيئًا من الأخوة، فهو من التعريض بتبرئة أنفسهم من صنيعه^(٢).

وقوله: ﴿سَرَقَ﴾ على الإيجاز، والتقدير: إن ابنك سرق في قول الملك وأصحابه^(٣).

(١) البحر المحيط، لأبي حيان (٦/ ٣١٣).

(٢) أورده الاستاذ الدكتور عبد الفتاح خضر في مدارس بملتقى أهل التفسير ١٤٢٧/١٢/٢٠.

(٣) التفسير الكبير، للفخر الرازي (٩/ ١٩٣)، ولاداعي لهذا التقدير لأنهم ذكروا مظاهر لهم، وهو توضيح أن سبب فقدة هو أنه سجن بسبب السرقة حتى لا يتهمهم بأنهم تسبوا في إيذائه.



وهذا الحذف يشعر بأن أخوة يوسف غير مقتنعين بسرقة أخيهم، فهم يعلمون جيدًا بأن تلك السرقة مزعومة، وأن أخاهم بريء من تلك السرقة. كما يكشف هذا الإيجاز عن رغبتهم القوية في إيصال فكرتهم بأقصى سرعة لأبيهم حتى يفكر معهم في حلٍ لإنقاذ أخيهم من ورطته.

ويتضح القصرُ في قوله: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ حيث قصروا شهادتهم على الذي يعلمونه فقط. وهذا القصر قد جاء عن طريق النفي والاستثناء، وهو الذي يناسب المقام؛ إذ أن هذا المقام يحتاج إلى تأكيد، والقصر يوحى بصدقهم فيما يقولون، وبرائتهم مما يظنه أبوهم من أنهم السبب في ضياع أخيهم، كما يشعر هذا القصر بأنهم لم يقطعوا بسرقة أخيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ احتراس، فهم يحترسون عمَّا يفهمه أبوهم من قطعهم بسرقة أخيهم، وهو إمَّا لِقَصْدِ التَّلَطُّفِ مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإمَّا لأنهم علموا من أمانة أخيهم ما خالجهم الشكُّ في وقوع السرقة منه^(١).

وتأتي الآية التي توضح علمهم بأن أباهم لا يصدقهم فيما يقولون، وفيها يطلبون من أبيهم أن يسأل أهل مصر بنفسه، والقافلة التي كانوا فيها.

يقول تعالى: ﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِقُونَ﴾

[يوسف: ٨٢].

والمراد من الأمر في قوله: ﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ﴾ التضرع والتوسل، فهؤلاء الأبناء يتضرعون لأبيهم ويتوسلون إليه بأن يسأل أهل القرية التي كانوا فيها، ويتأكد مما قالوه له.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٣ / ٣٩).



ويمكننا القول بأن لفظ ﴿الْقَرْيَةَ﴾ به مجاز مرسل علاقته الحالية؛ إذ أطلق المحل، وأراد الحال فيه. وهذا المجاز صور التلازم الشديد والعلاقة القوية بين القرية وأهلها بحيث يمكن التعبير بأحدهما عن الآخر.

وفي قوله: ﴿وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ مجاز بالحذف أيضاً، لأنَّ المسئولين هنا هم أهل العير.

وفي العدول عن الحقيقة إلى المجاز إشارة إلى ذبوع أمر السرقة واشتهارها إلى درجة أنه لو سئلت القرية والعير -أي: الجمادات والحيوان- لنطقت بها وأجابت ^(١).

وجاء النص القرآني ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ مؤكداً بإسمية الجملة، و(إنَّ) الداخلة على الخبر، لأنهم يعلمون أن أباهم منكراً لكل ما يقولون، فجاء التأكيد مطابقاً لمقتضى الحال.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٢].

هذه الآية استئناف بياني، ولذا فصل بينها وبين ما قبلها؛ لأنها جواب لسؤالٍ أُثيرَ من الجمل التي قالوها لأبيهم. والتقدير: ماذا قال أبوهم عندما سمع منهم ذلك؟ فقيل: قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً...﴾ الآية.

والتنكير في قوله: ﴿أَمْراً﴾ يشعر بالتحقير، فأبوهم يرى أن ما فعلوه حقيرٌ، وفيه اتهامٌ لهم بأنهم هم الذين دبروا ذلك، كما يوحي التنكير بتكذيبه لهم، وعدم تصديقهم.

(١) علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان، لسيوني عبد الفتاح (١٥٨)، قلت وهذا: على القول بأن القافلة والعير هي مراده بعينها على رأي بعضهم



ويتضح الحذف في قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ويحتمل أن يكون حذفًا للمسند إليه، والتقدير: فأمرني صبر جميل، ويحتمل حذف المسند، والتقدير: فصبر جميل أجمل، والغرض من الحذف على الاحتمالين تكثير الفائدة. وللسيوطي رأي آخر في سرّ الحذف، إذ يقول الظاهر أن الحذف هنا لضيق المقام^(١).

وسواء أكان الحذف للمسند إليه أم للمسند فقد أفاد المعنى وأضفى عليه مبالغة.

وتعريف المسند إليه بالعلمية في قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ﴾، وذلك للتبرُّك والتلذُّد بِاسْمِ اللَّهِ ﷻ، وطمأنة نفسه وإدخال الأنس في قلبه.

وكلمة ﴿جَمِيعًا﴾ في قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ تشعر بثقة يعقوب ﷻ القوية بربه، وتؤكد أن أبناءه سيعودون إليه معًا، وتمنع احتمال أن أحدهم هو الذي يأتي يعقوب والآخر لا يأتي لقوله تعالى: ﴿بِهِمْ﴾.

وجاء النص القرآني: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ مؤكِّدٌ (إِنَّ) وإسمية الجملة، وضمير الفصل، وذلك لتنزيل أبنائه منزلة مَنْ يُنْكِرُ علم الله وحكمته تويحًا لهم وتبكيًا.

ويتضح القصر عن طريق ضمير الفصل، وتعريف المسند ب(ال) في القول السابق: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾؛ إذ قصر العلم والحكمة على الله ﷻ، والقصر يشعر بأن هاتين الصفتين مختصتان بالله ﷻ ولا تتعداه إلى غيره.

ثم يأتي المشهد الذي يصور الأب المنكوب بصورة حزينَةٍ يبعدُ فيها عن

(١) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، للسيوطي (٢١).



أبنائه، ويتفجع على يوسف عليه السلام، لأن هذا الذي حدث قد أثار أحاسيسه الكامنة، وقد كان هذا الحزن بالغاً لدرجة أنه ذهب بصره فتحول من مُبْصِرٍ إلى أعمى.

وبين (أسفى) و(يوسف) جناس الاشتقاق، وقد أدى هذا الجناس إلى ثراء المعنى وتنبيه الذهن، كما أضفى هذا الجناس جمالاً وعضوبة رقيقة هادئة تتناسب وجو الحزن والأسى الذي يخيم على المكان.

وعطف جملة ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ على جملة ﴿ قَالَ ﴾ لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية لفظاً ومعنى، والفاعل فيهما واحد، وقد اشتركا في تصوير ما عليه يعقوب عليه السلام من حزن وألم.

وكنى القرآن الكريم عن ذهاب بصره وعماءه بقوله: ﴿ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ﴾، وهذه الكناية تصور مدى الألم والحزن الذي كم قاساه، وكمية البكاء الذي بكاه يعقوب عليه السلام بسبب فراق أبنائه.

ويأتي التصوير الاستعاري في قوله: ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ حيث شبه قلبه المليء بالحزن على يوسف عليه السلام بالقربية الممتلئة بالماء، وشبهه في صبره، وتركه الشكوى إلى غير الله برابطٍ ربط على فم القربة المليئة بالماء، حتى لا يخرج منها شيء، وهذا هو معنى الكَظْمِ^(١) على سبيل الاستعارة التصريحية، وهذه الاستعارة تصور مدى الحزن والضيق في صدر يعقوب عليه السلام ومدى صبره بحيث يجعله كالرابط على صدره.

وعلى الرغم مما حدث لأبيهم من حزن بالغ إلا أن حقدهم منعهم من أن يخففوا عن أبيهم، بل قالوا له ما يدل على حنقهم، وضيقهم من ذكره ليوسف عليه السلام.

(١) القرآن إعجازه وبلاغته، لـد/ عبد القادر حسين (٨٤).



يقول تعالى: ﴿ قَالُوا تَأَلَّه تَفْتَوًا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ

مِنَ الْهَلِكِينَ ﴾ [يوسف: ٨٥]

تبدأ الآية بالقسم ﴿ تَأَلَّه تَفْتَوًا ﴾، وهو على الإيجاز بحذف حرفٍ،
والتقدير: تأله لا تفتأ.

وتقدير (لا) هنا مقصود، وسوغ حذفها لزوال اللبس، إذ لو أريد الإثبات
لقال (لتفتأن)، فلمَّا لم يؤكد دلَّ على إرادة النفي، فقُدِّر حرفه (١).

لكن الدكتورة عائشة عبد الرحمن ترى: أن تقدير الحرف هنا لا معنى له؛
لأنه متى جاء السياق والمعنى واضح مستغناً عن الحرف المحذوف، فتقديره
أو تأويله فضول من القول، فهي تقول: "والذي نفهمه أنه متى أطرده الحذف
فالسباق حتمًا مستغنيًا عن المحذوف، ولا وجه إذن لتقدير الحرف، وكان ذكره
من الفضول أو الحشو الذي يتنزه عنه الكلام البليغ، فضلًا عن البيان المعجز".
وهذه الآية تحوي فنًا بديعًا جميلًا، وهو المسمَّى بـ(اتتلاف اللفظ مع
المعنى) (٢).

إذ إنه **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى** لما أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة لأخواتها،
- فإن (التاء) أقل استعمالاً، وأبعد عن أفهام العامة، و(الباء والواو) أعرف
عند الكافة، وهي أكثر دوراناً على الألسنة واستعمالاً في الكلام - أتى الله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع وتنصب الأخبار بالنسبة إلى
أخواتها، فإن (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من (تفتأ)، وهم لـ(كان) وما
قاربها أكثر استعمالاً منها.

(١) الإكسيري في علوم التفسير، للطوفي البغدادي، (٢٢٥)

(٢) اتتلاف اللفظ مع المعنى: "هو أن تكون ألفاظ المعنى المراد متلائمة بعضها مع بعض ليس فيها
لفظة نابية أو قلقلة على أخواتها بحيث يمكن استبدالها"، إعراب القرآن الكريم وبيانه، لمحي الدين
الدرويش (٣٧/٥).



وكذلك لفظ (حرصًا) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك، فاقضى حسن الوضع في النظم أن تجاوز كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخيًّا لحسن الجوار^(١).

والأبناء يقصدون من قسَمهم هذا أن ينكروا على أبيهم تذكُّره المستمر ليوسف عليه السلام، وأتوا بفعل ﴿تَفْتَوُا﴾؛ للدلالة على ذلك الاستمرار، وقد بلغ الإعجاز في هذه الآية مبلغًا عظيمًا لدرجة جعلت العلماء يتفننون في القول عنها. **فها هو أبو الهلال العسكري يقول عن هذه الآية:** "تحير في فصاحته جميع البلغاء، ولا يوجد مثله في كلام البشر"^(٢).

وها هو عبد الكريم الخطيب يقول مبيِّنًا الإعجاز فيها: "هل تجد نبرة تخذش أذنك، وقرأها فهل تجد حرفًا يتعثر على شفتيك أو يضطرب في لسانك، وانظر في هذه الكلمات..... وقرأها مفردة، ثم اقرأها مجتمعة (تالله، تفتأ، حرصًا) إنها من غير شكٍ ثقيلةٌ على الأذن، وعلى اللسان".

ولكنها حين أصبحت في نظم قرآني خفَّ ثقلها ولان يابسها، وسلس جماحها، وانقاد وذل نافرها، فإذا هي عارية عرائس مجلوة تخطر في روضٍ نضيرٍ! ولكأنَّ القرآن قد تخير عن عمدٍ هذه الكلمات الثلاث، وجاء بها من أجل ثقلها هذا ليقيم فيها شاهدًا من شواهد إعجازه^(٣).

وحينما قالوا له قولتهم السابقة المشتملة على قَسَمهم الذي يدل على حنقهم وحقدهم ردَّ يعقوب عليهم بأنه يشكو حزنه وهمه إلى الله وحده، لأنه هو الذي يعلم ما بداخله.

(١) بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (٧٧، ٧٨).

(٢) الصناعتين، لأبي هلال العسكري، (١٩٦).

(٣) إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها، لعبد الكريم الخطيب (٢٧١)، وإن كان لا يوافق على لفظ (عمد) كون ألفاظ القرآن جاءت مقصودة بحروفها ومعانيها ومواضعها.



﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦].

ويتضح القصر في الآية حيث قصر يعقوب عليه السلام بثه وشكواه على الله قصرًا حقيقيًا، وذكرت ﴿ إِنَّمَا ﴾ دون النفي والاستثناء مثلًا، لأن شكوى يعقوب عليه السلام إلى الله وحده أمر مألوف ومأنوس في النفس ومتوقع منه عليه السلام في الظروف التي مر بها، وهذا الأصل في القصر بـ ﴿ إِنَّمَا ﴾، والقصر يصور احتياج يعقوب عليه السلام الشديد إلى ربه، وأنه لا يشكو أبدًا إلى غيره.

وقد ذكر بعض أهل اللغة^(١) أن يوجد مماثلة بين قوله: ﴿ بَنِي ﴾ ﴿ وَحُرْنِي ﴾

﴿ بَنِي ﴾ قال في معناه ابن عباس: "همي"، وقيل: أشد الحزن^(٢).

وقد أعقب كلامه بقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾؛ لينبههم إلى قصور عقولهم عن إدراك المقاصد العالية ليعلموا أنهم دون مرتبة أن يعلموه أو يلوّموه^(٣).

وقوله: ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ تعريض بوقوع ما يُعْتَقَدُ أنه محال من عودة يوسف عليه السلام وأخيه.

وقد عدَّ ابن أبي الإصبع هذه الآية من الضرب الأول من الانسجام، فهو يقول: "فأنت ترى سهولة هذا النظم، وعضوية هذه الألفاظ، وما في هذا الكلام من الانسجام مع ما فيه من التعطف في قوله تعالى: ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾، و﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ﴾، وهو أوجز من الأول؛ ليأتي في الكلام تعطف يزيد حسنًا، وفيه زيادة خضوع وترقيق مع تمكين فاصلة الآية"^(٤).

(١) المماثلة: هي تماثل الألفاظ في المعنى مع اختلاف اللفظ. انظر: بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (١٠٧). وقد أنكرها بعض المحققين، لأن كل لفظ في القرآن له دلالة المستقلة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٤/٣٤٨٠).

(٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور (٤/٤٥).

(٤) بديع القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (١٦٦).



ثم بعد ذلك يوجه يعقوب عليه السلام أبنائه لكي يبحثوا عن أخويهم واثقين بالله ورحمته غير يائسين من روح الله؛ لأنه لا ييأس من رحمته إلا الذين يكفرون به تعالى.

فقال لهم: ﴿يَبْنَئِ أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وناداهم بلفظ البنوة إظهاراً للشفقة والحب، على الرغم مما فعلوه فيه من ضياع ولديه، ليكون أدعى في القبول والامثال. وهذا يثبت أن قلوب الآباء لا تزال تمتلئ بالشفقة والعطف على الأبناء مهما فعلوا أو اقترفوا.

والمراد من الأمر في قوله: ﴿أَدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا﴾ التوجيه والإرشاد، فيعقوب عليه السلام يوجههم ويرشدهم إلى البحث عن أخويهم، وتلمسهما، والعودة بهما. وهذا يشعر بعدم تسليمه عليه السلام بكلامهم القديم من أن يوسف قد أكله الذئب، وأن إنكار أبنائه السابق في قوله: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ لم يترك عنده أثراً، ولم يثبط إحساسه بأنهم إليه عائدون.

والمراد من النهي في قوله: ﴿وَلَا تَأْتَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ بث الأمل وشعور بالثقة، فهو يرشدهم إلى الثقة بالله، وعدم اليأس من فرجه أبداً.

ووصل جملة ﴿وَلَا تَأْتَسُوا﴾ بجملة ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ وذلك لما بينهما من التوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الإنشائية لفظاً ومعنى، والفاعل فيهما واحد وهو الضمير العائد إلى أبناء يعقوب عليه السلام، والجملتان تشتركان في تصوير الأمل الذي أراد يعقوب عليه السلام أن يبثه في نفوس أبنائه.



وفي هذا فائدة تربوية بأن يفسح للأولاد مجال في تصحيح إخطائهم،
وكأنّ ردهم السابق يحتاج إلى زيادة تحرٍ وتدقيق ليحصلوا المطلوب.

وواضح ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾.

من قصر فهو يقصر اليأس من روح الله على الكافرين قصرًا حقيقيًا
طريقه النفي والاستثناء، وفي هذا القصر تخويف وتحذير لأبنائه من نتيجة
اليأس من رحمة الله.

وفصل بين جملة ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ...﴾ عمّا قبلها لشبه كمال الاتصال؛ لأن
الجملة التي قبلها قد أثارت سؤالاً تقديره: (لماذا لا تيأس؟) فقيل: ﴿إِنَّهُ لَا
يَأْتِسُّ...﴾ إلخ.



الخطاب

❁ وفيها أهم نتائج البحث مع التوصيات والمقترحات:

- ١- الحوار ليس سمة للمجتمع البشري فقط، بل قد كان حاضراً في خطاب الله تعالى مع الملائكة، وحتى مع إبليس والمخلوقات.
- ٢- لا تتبدل لغة الحنان والعطف من الآباء للأولاد مهما كانت الظروف والمواقف.
- ٣- يقوم حوار الآباء مع أولادهم على أساس حفظ كرامة الابن مهما كان تصرفه سيئاً، ويتضح من خلال حوار نوح مع ابنه الكافر الذي مازال يتحنن عليه، ويناديه ببناء البنوة.
- ٤- القدوة مطلب للتأثير والتربية، ويتضح جلياً من خلال النظر في توجيهات الأنبياء ﷺ في حواراتهم.
- ٥- بث الأمل بالله وحده، وإسناد الأمور كلها للخالق الواحد المتصرف يثبت أركان العقيدة الصحيحة في نفوس الأبناء كما فعل يعقوب في كل مواقف الضنك التي مر بها.
- ٦- الحوار من أسرع وأنجع طرق التعليم والتواصل المثمر وتغذية العقل بالفهم الصحيح لمجريات الأحداث وحقائق الأمور.

❁ وتوصي الدراسة بـ:

- ١- الاهتمام باستخراج الأسرار والدلالات البلاغية في القرآن الكريم؛ لإبراز روعة وعظمة التعبير القرآني.
- ٢- عدم التكلف في استخراج السر البلاغي، فالقرآن لا يحتاج إلى التكلف؛ لأن القرآن غني بألفاظه الموجبة، ومعانيه المعجزة.
- ٣- دراسة منهج القرآن في توطيد علاقة الأولاد بالآباء من خلال توجيهات القرآن وأسرار خطابه.



المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. «أساس البلاغة». الزمخشري، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر. تحقيق: عبد الرحيم محمود، د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.
٣. «أساليب البيان والصور القرآنية». د.محمد إبراهيم شادي. د.ط، دار وافي الإسلامية، ١٩٩٥.
٤. «أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً». د.عبد الغني محمد سعد بركة. د.ط، القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت.
٥. «إعجاز القرآن في دراسة كاشفة لخصائص البلاغة العربية ومعاييرها». عبدالكريم الخطيب. د.ط، دار الفكر العربي ومطابع دار الكتاب العربي، ١٩٦٤.
٦. «الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ - دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن». د/ محمد الأمين الخضري. د.ط، مطبعة الحسيني الإسلامية، د.ت.
٧. «الإعجاز البياني للقرآن ومسائل بن الأزرق». د.عائشة عبدالرحمن. د.ط، دار المعارف، د.ت.
٨. «الإكسير في علوم التفسير». الطوفي البغدادي. تحقيق: د. عبد القادر حسين، د.ط، دار الأوزاعي، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
٩. «البحر المحيط». أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. د.ط، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.



١٠. «البعد النفسي للتذوق البلاغي لأسلوب القرآن الكريم». أ.د. عبدالرحيم محمود زلط. د.ط، د.ن، د.ت.
١١. «البيان بين عبد القاهر والسكاكي». د.علي البدري. د.ط، دار السعادة، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.
١٢. «التبيان في إعراب القرآن». للعكبري. تحقيق: علي محمد البيجاوي، د.ط، إحياء الكتب العربية، د.ت.
١٣. «التحرير والتنوير». ابن عاشور، محمد الطاهر بن عاشور. د.ط، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ت.
١٤. «التعبير الفني في القرآن الكريم». د. بكري شيخ أمين. د.ط، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٤م.
١٥. «الجامع لأحكام القرآن». القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد. د.ط، دار الشعب، د.ت.
١٦. «الجمان في تشبيهات القرآن». ابن نايقا البغدادى. تحقيق: د. مصطفى صادق الجويني. د.ط، د.ن، د.ت.
١٧. «الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه». د/ منى إبراهيم اللبودي. ط ١، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م.
١٨. «الحوار في القرآن الكريم خصائصه التركيبية وصوره البيانية». محمد إبراهيم عبد العزيز. د.ط، مكتبة الشروق، د.ت.
١٩. «الصناعتين». العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله. تحقيق: علي محمد البجاوي. د.ط، د.ن، ١٣٧١هـ.



٢٠. «الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان المنسوب خطأ لابن القيم الجوزية». تحقيق جماعة من العلماء. د.ط، دار الكتب العلمية، د.ت.
٢١. «القاموس المحيط». الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. ط ٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٢٢. «الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل». الزمخشري، محمود بن عمر. د.ط، بيروت: دار المعرفة، ١٤٣٠هـ.
٢٣. «المطول في شرح تلخيص المفتاح». التفتازاني، سعد الدين التفتازاني. تحقيق: عبد الحميد هنداوي. د.ط، دار الكتب العلمية، د.ت.
٢٤. «المعجم الوسيط». مجمع اللغة العربية. د.ط، دن، ٢٠٠٤.
٢٥. «بحث التكرار في القرآن الكريم مظاهره وأسواره». المهدي، كمال محمد. مجلة الزهراء، (٨)، ١٤١٠ - ١٩٩٠، ٢٠٢.
٢٦. «بديع القرآن». ابن أبي الإصبع المصري. تقديم وتحقيق: د. محمد حفني شرف. د.ط، مصر: دار النهضة، د.ت.
٢٧. «تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار». محمد رشيد رضا. د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.
٢٨. «تفسير القرآن العظيم». ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. تحقيق: سامي السلامة. د.ط، دار طيبة، د.ت.
٢٩. «تفسير المراغي». د.ط، مصر: مصطفى البابي الحلبي، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م.



٣٠. «تفسير المنير». د/ وهبه الزحيلي. د.ط، بيروت: دار الفكر، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
٣١. «حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي». د.ط، بيروت: إحياء التراث العربي، د.ت.
٣٢. «حجة القراءات». أبو زرعة، عبد الرحمن بن محمد زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. د.ط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
٣٣. «خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية». د. عبد العظيم المطعني. د.ط، وهبة، ١٩٩٢.
٣٤. «دلالات التراكيب دراسة بلاغية». د/ محمد محمد أبو موسى. ط ٢، مكتبة وهبة، ١٤٠٨ هـ.
٣٥. «دلائل الإعجاز». الجرجاني، عبد القاهر. تحقيق: الشيخ محمود شاكر. د.ط، القاهرة: دار المدني، د.ت.
٣٦. «شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان». السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن. د.ط، مصر: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
٣٧. «صحيح مسلم». مسلم بن الحجاج. تحقيق: نظر محمد الفاريابي. د.ط، دار طيبة، د.ت.
٣٨. «صفوة التفاسير». الصابوني، محمد علي. د.ط، دار الصابوني، د.ت.
٣٩. «علم البيان دراسة تحليلية لمسائل البيان». بسيوني عبدالفتاح فيود. د.ط، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ودار المعالم الثقافية الإحساء للنشر والتوزيع، ١٤١٨ هـ.
٤٠. «علم البيان». د عبدالفتاح لاشين. د.ط، د. ن، ١٩٩٥ م.
٤١. «في التذوق الجمالي لسورة يوسف». أبو حمدة، محمد علي. د.ط، عمان: دار البشير، ١٤٠٥ - ١٩٨٥.
٤٢. «لسان العرب». ابن منظور. تحقيق: يوسف خياط، ونديم مرعشلي، د.ط، بيروت: دار صادر، ودار لسان العرب، د.ت.



٤٣. «معاني القرآن». الأخفش. تحقيق د. عبد الأمير محمد أمين الورد. د.ط، عالم

الكتب، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥.

٤٤. «معجم الألفاظ والأعلام القرآنية». د.ط، دن، د.ت.

٤٥. «معجم الألفاظ والعلام القرآنية». محمد إسماعيل إبراهيم. د.ط، بيروت: دار

الفكر العربي، د.ت.

٤٦. «مفردات في غريب القرآن». الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد بن المفضل.

تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني. د.ط، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

٤٧. «من أسرار التعبير في القرآن صفاء الكلمة». د. / عبد الفتاح لاشين. د.ط، الرياض:

دار المريخ للنشر بالرياض ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.



فهرس الموضوعات

١٨٩ مستخلص البحث
٩٣ المقدمة
٩٥ التمهيد
٩٩ المبحث الأول: حوار نوح <small>عليه السلام</small> مع ابنه
١٠٩ المبحث الثاني: حوار إبراهيم مع ابنه إسماعيل <small>عليه السلام</small>
١١٦ المبحث الثالث: حوار يعقوب مع ابنه يوسف <small>عليه السلام</small>
١٢٦ المبحث الرابع: حوار يعقوب <small>عليه السلام</small> مع أبنائه بعد فقد يوسف وأخيه
١٣٧ الخاتمة
١٣٩ المصادر والمراجع
١٤٥ فهرس الموضوعات



TADABBUR MAGAZINE

Refereed Scientific Biannual Journal specialized in the Arbitration and Publication of the Researches and Studies related to the Areas of Meditating on the Holy Qur'an

The eighth issue, Rajab 1441 AH, corresponding to March 2020, the fourth year

﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَدَّبُرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]

TADABBUR MAGAZINE Index:

- 🌸 **The Qur'anic Purposes of Sura Qāf**
Hammad Mohammed Yusuf
- 🌸 **The Eloquence of the Koranic Style of Dialogue: the Prophets' Dialogue with their Children as a Model**
Dr. Badria Saeed Mo'eedh Al-Wadi'ee
- 🌸 **Compulsory Question in the Koranic Dialogue: a Thorough Applied study**
Dr. Hamid bin Radi bin Muslih Ar-Rouqi
- 🌸 **Basing the Chapter of Al-Haqqah on the Glorification of Allah (Exalted be He) and the Requisites of Devotion**
Dr. Tawfiq Ali Zabadi
- 🌸 **A Report on a scientific thesis entitled "Meditating on the Noble Koran"**
Dr. Abdullatif bin Abdullah Al-Tuwaijri
- 🌸 **A Report on the Mushaf of the Spiritual Directives of the Noble Quran**
- 🌸 **A Report on The Second International Quranic Conference on the Spiritual Directives of the Noble Quran**

